

التفسير المختصر - سورة الأنعام (٠٦) - الدرس (٧-٧) : تفسير الآية ٣٦ ، الإستجابة  
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٤-٠٧-٣

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين:

وبعد، ففي القرآن الكريم آية كريمة، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمُؤْمِنُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٣٦)

في هذه الآية إيجازٌ بلٍغٌ، السَّمَاعُ عِنْ الدَّهْرِ، هُوَ السَّمَاعُ الَّتِي تَعْقِبُهُ اسْتِجَابَةً.

لَوْ أَنْ إِنْسَانًا عَلَى وَشَكِ الموتِ عَطَشًا، وَقَلَّتْ لَهُ بِلْسَانٌ فَصِيحَّ فِي الْمَكَانِ الْفَلَانِي وَهُوَ قَرِيبٌ مِّنْكَ، مَاءُ عَذْبٌ فَرَاتَ، سَمِعَ هَذَا الْكَلَامَ وَتَحَرَّكَ طَبْلَةُ أَذْنِهِ بِاهْتِزَازَاتِ الصَّوْتِ، وَبَقَيَ قَاعِدًا فِي مَكَانِهِ، وَهُوَ عَلَى وَشَكِ الموتِ عَطَشًا، وَلَمْ يَقُمْ إِلَى مَكَانِ الْمَاءِ.

هَذَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لَمْ يَسْمَعْ، لَوْ أَنَّهُ سَمَعَ لِبَادِرٍ إِلَى أَنْ يَشْرُبَ الْمَاءَ.

لَوْ قَلَّتْ لِإِنْسَانٍ عَلَى كَتْفَكَ عَقْرَبٌ، فَبِأَعْصَابٍ بَارِدَةٍ تَبْسَمُ وَقَالَ لَكَ: أَشْكُرُكَ عَلَى هَذِهِ الْمَلَاحِظَةِ، وَأَنَا مُمْتَنٌ مِّنْكَ لِحِرْصِكَ عَلَى سَلَامِتِي وَبَقِيَ هَادِئًا مُسْتَقْرَأً، وَلَمْ يَنْفُضْ ثَوْبَهُ الَّذِي عَلَى كَتْفَهِ.

هَذَا فِي الْقُرْآنِ لَمْ يَسْمَعْ، لَأَنَّ السَّمَاعَ الَّذِي لَا تَعْقِبُهُ اسْتِجَابَةً فُورِيَّةً، لَا يُسَمِّيهِ اللَّهُ سَمَاعًا.

الله عز وجل يقول:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾

فَالَّذِي يَسْمَعُ حَقْيَقَةً، هُوَ الَّذِي يَسْتَجِيبُ.

طَيْبٌ هَذَا الَّذِي يَسْمَعُ وَلَا يَسْتَجِيبُ، مَاذَا سَمَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، سَمَاهُ مِيتًا، شَيْءٌ خَطِيرٌ جَدًّا، أَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَمِعُ لِخَطْبَةِ لَدْرَسٍ، لِنَصِيحَةِ لَمْوَعْذَةٍ فِيهَا دَلِيلٌ مِّنَ الْقُرْآنِ، وَالسُّنْنَةِ، فِيهَا تَوجِيهٌ لِصَالِحِهِ لِمَسْتَقْبَلِهِ يَكْفِي أَنْ يَجَالِمَ وَيَقُولَ وَاللَّهُ شَيْءٌ جَمِيلٌ، وَاللَّهُ درِسٌ لَطِيفٌ، وَاللَّهُ خَطْبَةٌ بَلِيغَةٌ يَا أَخِي، لَكُنْ هُوَ هُوَ، فِي بَيْتِهِ هُوَ هُوَ، فِي عَمَلِهِ هُوَ هُوَ، فِي دُخُلِهِ لِلْمَالِ هُوَ هُوَ، لَا يَتَغَيِّرُ وَلَا يَتَبَدَّلُ، هَذَا عَنْ الدَّهْرِ مِيتٍ، الْآيَةُ عَلَى قَصْرِهَا، وَعَلَى إِيْجَازِهَا خَطِيرَةٌ جَدًّا.

يَعْنِي الْمُسْلِمُ إِذَا حَضَرَ خَطْبَةَ جَمَعَةٍ، أَوْ درِسَ تَفْسِيرٍ، وَاسْتَمِعَ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، بِلْسَانٌ فَصِيحٌ وَاضْعَفُ، آيَةٌ قَرَآنِيَّةٌ وَاضْعَافَةٌ وَضُوْحُ الشَّمْسِ.

يَقُولُ لَكَ:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾

(سورة التور: ٣٠)

قَالَ شَوْ بَدْنَا نَسَاوِيُّ، نَحْنُ عَبْدُ إِحْسَانٍ مَا لَنَا عَبْدُ امْتِحَانٍ، اللَّهُ يَتُوبُ عَلَيْنَا، هَذَا عَنْ الدَّهْرِ مِيتٍ، لَأَنَّهُ سَمَعَ الْحُكْمَ الشَّرِيعِيَّ، وَلَمْ يَبَدِّرْ إِلَى تَطْبِيقِهِ.

فأردت من هذه الآية، أن يقف المسلم وقفه متأنياً، متتحققةً متبصرةً، أي أن الإنسان، أنه هذه فرصة لا تعوض، الله عز وجل حينما يسمعك الحق، هذه فرصة لا تعوض.

بالمناسبة كل إنسان وصله الحق له بشاره من الله عز وجل، ما هذه البشاره؟ قوله تعالى:

﴿وَلَوْ عِلْمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾

(سورة الأنفال: ٢٣)

لو لا أن الله سبحانه وتعالى علم فيك الخير لما أسمعك، لما أوصل لك هذا الكلام. فالإنسان إذا حضر مجلس علم، خطبة جمعة، درس تفسير نصيحة من أخ، الدليل قوي، الآية واضحة، واضحة وضوح الشمس الحديث الشريف واضح، واكتفى بالثناء على هل الكلمة، وعلى فصاحة المتكلم، وعلى دقة الكلام، يا أخي الكلام حلو كثير، ما غير ولا بدل، هذا أخطر أنواع التكذيب، هذا هو التكذيب العملي، سماه الله ميتاً.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾

والذين لا يستجيبون إذا سمعوا موتى.

﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾

فالإنسان حينما يحضر مجلس علم، القضية أخطر بكثير، من أن تستمع إلى كلام لطيف، أو كلام منظم، أو كلام صحيح، أو في طرفة أو في نكته بلاغية، أو في إشارة لطيفة إلى آية قرآنية القضية أخطر من ذلك، القضية قضية مصرير.

سيدنا علي كرم الله وجهه قال: يا بني العلم خير من المال لأن العلم يحرسك، شوف العلم يحرسك، وأنت تحرس المال.

مرة جاءني رجل، والله القصة من عشرين سنة، قال لي أنا زوجتي تخونني، قلت أعود بالله، قال لي: والله من ثلاثة سنوات قلت له مع من، قال: مع جارنا، قلت كيف تعرفت عليه؟ قال والله الحق على، مرة جاء يزورنا، قلت لها يا بنت الحال تعي عدي معنا، مثل أخوك، قلت له لو أنت تحضر مجالس علم، وعرفت حكم الله في الاختلاط لم تفعل ما فعلت، وبالتالي لم تقع فيما وقعت. إخواننا الكرام، دققوا في هذا الكلام، ما من مصيبة على وجه الأرض، إلا ورائها معصية الله، خروج عن منهج الله، وما من خروج على وجه الأرض ومعصية إلا بسبب الجهل، والجاهل يفعل في نفسه مالا يستطيعوا أعدائه مجتمعون أن يفعلوا به.

يعني اعتبر أن أعدائك هو الجهل، وأن الطريق إلى الله يبدأ بالعلم، إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم وإذا أرتهما معاً فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطيك شيئاً.

أحياناً الإنسان يستمع إلى مجلس علم، بدقة بالغة، وينصت ويصغي ويتأمل، لكن لو أنه أراد الدنيا، لو أن الدنيا هي أكبر همه مبلغ علمه، شأنه شأن آلة تصوير، غالباً جداً دقيقة جداً، فيها

ميزات هائلة بس فلم ما في، فأمهما كان المنظر جميلاً، والألوان زاهية والخلفية رائعة، هذه الآلة على أنها عالية جداً وثمينة جداً، بس فلم ما في، إذا.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾

الذي لا يستجيب ميت، وهذه فرصة لا تعوض، أن الإنسان يستمع إلى حكم الله، إلى أمر، إلى نهي، إلى توجيه، إلى حض، إلى دفع، ثم يقف موقف المعجب، والله كلام لطيف، والله درس جميل، والله درس منظم، والله في عمق الحمد لله، كله كلام لا يغريك عن تطبيق هذا الكلام شيئاً، فحجمك عند الله بحجم الترامك وعملك الصالح، لأن الله قال تعالى:

﴿إِلَيْهِ يَصْدُدُ الْكَلْمُ الطَّيِّبُ﴾

(سورة فاطر ١٠)

إذا كان تكلمت كلام لطيف هذا الكلام يصعد إلى الله، لكن ما الذي يرفعك عند الله، قال:

﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾

الذي يرفعك عملك الصالح، لا ثائق، ولا كلماتك.

إذا قال الإمام علي كرم الله وجهه: يا بني العلم خير من المال لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال.

سائق تكسي في دمشق، هذه القصة من ثمانية أشهر، أشارت إليه امرأة، فصعدت إلى مركبته، قال لها: إلى أين؟ قالت له إلى حيث ما تشاء، فهم، بعد أن قضى حاجته، أعطته رسالة، وظرفًا فيه مبلغ من المال، فعد نفسه فائزًا، يعني شيء لا يقدر بثمن، قضى حاجته، وقبض مبلغ على هذه الحاجة، ورسالة، فلما نزلت من مركبته، فتح الرسالة وإذا هي مصابة بمرض الإيدز، قالت له: مرحبا بك في نادي الإيدز، ذهب ليصرف المبلغ بالعملة الصعبة طلع مزور وضعوه في السجن.

ما الذي كان يمكن أن يحرسه؟ العلم، لماذا وقع في هذا الشرك؟ لأنها جاهم.

العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تتقنه النفقة، والعلم يذكرها على الإنفاق.

يا بني مات خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة.

يعني إذا أردت أن تخلد، وهذا مستحيل، لكن تخلد بعلمك.

أنا مرة سألت طلابي سؤال، قلت لهم من يقول لي؟ من يعطيني اسم تاجر عاش في الشام، عام، ١٨٩٣، أعطيه علامة تامة فحكوا رؤوسهم وتأملوا لم يهتدوا إلى اسم تاجر، قلت لهم وأنا مثلكم لا أعلم، لكن من هنا لا يذكر سيدنا صلاح الدين الأيوبي، سيدنا عمر بن الخطاب، سيدنا الشافعي، سيدنا أبو حنيفة.

يا بني مات خزان المال وهم أحياء، وهم في أوج حياتهم، وهم في أوج نشاطهم ماتوا، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة.

العلم يرفعك أيها الأخ الكريم، يرفعك إلى أعلى علبي، إنك إن عرفت الله، طبقت أمره، وإن طبقت أمره استحققت سعادة الدنيا وجنة الآخرة، فالقضية خطيرة جداً.  
نعود للآية الكريمة:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾

الذي لا يستجيب للسماع الحق هو عند الله ميت، قال تعالى: في آية آخرة.  
﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾

(سورة النحل)

بآية ثلاثة:

﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مِّنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (٢٢)

(سورة فاطر: ٢٢)

مقبور بشهواته، بأعماله، بطموحاته، فالإنسان حينما يصغي ويستمع ويغير، ويبدل، ويأخذ موقف، في حياة، في نبض، أما إذا استمع واكتفى بالثناء على المتكلم وقال لك: شيء جميل، هذا لا يرفعك عند الله عز وجل، لأنك حجمك عند الله بحجم عملك الصالح.

قال تعالى:

﴿وَكُلُّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا﴾

(سورة الأنعام: ١٣٢)

**والحمد لله رب العالمين**

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم أعطنا ولا تحرمنا، وأكرمنا ولا تهنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وأرض عنا، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم..

**والحمد لله رب العالمين**